أسرار حياة بلاد العرب السعيدة

LA VITA SEGRETA DELL'ARABIA FELICE

تأليف الكاتب الإيطالي ـ لفانوري آبرتشي

للأستاذ محمد عبد الله العمودي

يقسم الجغرافيون القدامى البلاد العربية من حيث التكوين الطبيعي وخصوبة الأرض إلى شطرين عظيمين : يمثل أولهما بلاد العرب الصحراوية وأطلقوا عليه Arabia deserta وهو الجزء الشمالي من الجزيرة . والآخر بلاد العرب السعيدة وأسموه Arabia felixa وعنوا به الجزء الجنوبي من الجزيرة بما يعرف اليوم باليمن وحضرموت ، وما ناوحها من الكور والمخاليف

وهذا التقسيم ليس من مستحدثات هذا العصر، ولكنه يرتفع إلى عصر سحيق جداً ؛ فمؤرخو الإغريق والرومان هم أقدم من كتب عن هذا القطر الخصيب، وأول من ابتدع هذا التعريف تفريقاً بين الإقليمين من حيث قوة الإنتاج وكرم الأرض وجمال التربة

وأصبحت « بلاد العرب السعيدة » علماً مشهوراً على بلاد اليمن ، وبقي هذا المفهوم بهذا الوضع اللفظي واحداً في سائر اللغات الأوربية مع تحريف بسيط في المقطع الثاني من الكلمة الأخيرة

وترجع شهرة هذا القطر الكريم من بلاد العرب إلى عصور متلاحقة في القدم حينما خط أولئك اليمانون على أمواج الدهور حضارات ومدنيات بلغت النهاية القصوى من الإبداع والازدهار والحيرة ما زالت أسرارها بعيدة متفرقة في خفايا الدهور ، ورمال الصحراء ! وبالرغم من كثرة الرواد الذين اقتحموا هذه البلاد ، وتغلغلوا في آفاق بعيدة مهمة منها، وأماطوا اللثام عن بعض أسرارها وخفاياها ، فبلاد اليمن أو الجزء الجنوبي من بلاد العرب ما زال لغزاً من الألغاز ، وسراً استغلق فهمه على الأجيال ، وسيبقى هكذا إلى أن يبدل الله أرضاً بأرض وأقواماً بأقوام !

هذا الجزء الخصيب من الجزيرة العربية يؤلف منذ أقدم العصور حتى أيامنا هذه سلسلة متلاحقة الحلقات ، قائمة بنفسها لجماعات من الرواد الذين رادوا هذه البلاد فجاسوا خلال ديارها ونقبوا عن أطلالها ، فكتبوا عنها تقارير ضافية ، مبنية على صدق الملاحظة والاستنتاج الشخصي القائم على الخبرة والبصر

فأقدم من أرّخ عن هذه البلاد وبقيت أخباره حتى أيامنا هذه مصدراً يعول عليه هو استرابو ، ذلك العالم الإغريقي الذي عاش قبل الميلاد ، فقد صور هذه البلاد « السعيدة » من جغرافيته في عبارات مشرقة لماحة الرواء رائعة التاريخ كبسمة من بسمات الدهر لهذه البلاد العريقة في القدم التي رماها الزمن بسهام صائبات في سكانها وحكامها ، ووقفنا على ما بلغته تلك البلاد من الشأو البعيد في مجتلى الحضارة ، وبلهنية العيش حتى « إنهم ليحرقون الأعواد العطرية الفواحة في الوقود بدلاً من الأحطاب[1] »

وجاءت القرون الوسطى وعصر النهضة ، فتوا كبت على البلاد العربية أفواج المستكشفين ، مستهدفين لأخطارها ، همهم الوحيد ارتياد صحاريها واستكشاف مجاهلها والوقوف على مواطن اللبان والمر والبخور وسائر الأطياب التي تفهق بها منحدرات جبال اليمن وشعاب حضرموت العميقة فوقفوا إلى أقصى حد

وإذا كان للانجليز والألمان والفرنسيس مغامرون إلى هذه البلاد فالإيطاليون لا يقل حظهم عن هؤلاء في هذا المجال . وترجع صلتهم باليمن — الصلة العلمية البحتة — إلى العهد الذي قام فيه الرحالة الإيطالي المشهور (لودفيكيو دي فرثمة) الذي يعتبر أول من راد بلاد اليمن من الفرنجة ، وفتح لغيره باب المغامرات وذلك عام ١٥٠٣م، وقد طبعت رحلته خمس مرات في روما والبندقية

ثم انعكست الآية ، وظهر في اليمن قبل الحرب العامة إيطالي خطير يدعى (لويجي كابرتي) كان الجرثومة الأولى للفكرة الاستعمارية ؛ وصفه إدوار غلازر بأنه « أحد أولئك الرجال الذين بنوا مجداً لأوطانهم » و « أول من فتح بلاد العرب للتجارة الإيطالية ». وقد ظل في اليمن يعمل على بث فكرته حتى قضى نحبه في صنعاء ودفن بمقبرتها، وما زال قبره هناك يعرف بصليب عليه!

وخلفه في صنعاء أخ له يدعى يوسف ، يعرفه اليمانيون لليوم « بسيدي يوسف الطليان ! » فكان خلفاً على آبائه ...

أما في هذه السنين الأخيرة التي تحركت الأطماع المتوثبة في صدر إيطاليا الفاشستية فقد حفلت المكتبة الإيطالية اليمنية في هذه السنين بكتب نفيسة ، وأسفار ما كتب الأخباريون مثلها حتى أصبحت بلاد اليمن وحياً لأقلام الإيطاليين دون غيرهم . ولقد كتبت في السنين التالية كتب ومقالات وتقارير عجزت عن مثلها قرون مضت ! ولولا الأنفاس الاستعمارية التي ترشح في هذه الكتب لكان الإيطاليون من أكثر الشعوب الأوربية التي أسدت فضلاً عظيماً ومجهوداً جليلاً في خدمة التاريخ اليمني والتنويه بذكره في المؤلفات التي نشرها كل من المأسوف عليهما العلامة

(١) Strabo: the geography

نللينو والسنيور غرّيفيني مندوب الأمبروسيانا[1] فى ميلانو وغيرهم من الذين أفنوا أعمارهم وأحرقوا أدمغتهم فى سبيل الثقافة العربية والتاريخ الإنسانى العام. وكما وُجد منهم الخيّرون، وُجد منهم للفاشستية أنصار اتخذوا من العلم سلاحاً يحققون به أغراضاً معينة، ويخدمون أطماعاً متوثبة نحو البلاد التى تشق بوطأتهم . من هؤلاء السنيور سلفاتورى آبونتى صاحب هذا الكتاب الذى لا يمكن بحال من الأحوال ـ ونحن نعرض لكتابه هذا ـ أن نغمط حقه أو ننكر فضله ، وما أضفاه من الأنوار الزاهية على تاريخ اليمن ونشره فى أرجاء الغرب ؛ كما ننكر عليه ذلك الأسلوب الاستعمارى الصارخ الذى أسقط هذا الكتاب كمؤلف علمى بحت

هذا الكتاب

هذا السفر الجليل الضخم طبعته ونشرته دار «موندادورى» بميلانو فى قرابة المائتى صفحة ؛ تحلى بمائتين وسبعين صورة تعد من أبدع الصور، منتزعة من صميم الحياة فى سهل اليمن، تمثل الزعماء، والمدن ، والقصور ، والمعاقل ، والجبال المغطاة بأشجار البن ...

تبتدئ نقطة الرحيل والانطلاق إلى داخلية اليمن من ثغر عدن . ويحدثنا السنيور آبونتى بقصة طريفة قبل أن يبتدئ فى مسيره ، وذلك أنه عمد إلى صرة فملأها بنوع من العملة الفضية التي لا تروج إلا فى بلاد اليمن والحبشة : هذه العملة هى «ريال ماريا تريزا» أو(أبو طيرة) ، وهو عبارة عن ريال ضخم حالك المنظر، قليل القيمة، محدود المنفعة؛ والإمام يحيى وشعبه لا يعرفون إلا هذا النوع من النقد ولا تروج عندهم الأوراق المالية مطلقاً !

ويبارح المؤلف أسوار عدن ويتجه نحو الشمال ، فتصافحه « أرض العبدلى » سلطنة لحج ، فيراها غارقة فى بحر من النخيل تحف بها بساتين العنب وأشجار الموز ؛ وتبدو الحوطة عاصمة هذه السلطنة فى منظر ساحر جذاب ، ويزداد الرء إعجاباً بهذه الواحة الواسعة ذلك القصر العجيب المصبوب من الرمن الفاخر الناصع وقد فرشت على واجهته الأمامية فوطة صفراء سكتوباً عليها بالحرف العريض ـ خوف الالتباس ـ هذه العبارة : « قصر السلطان عبد الكريم فضل بن على محسن العبدلى ! »

ويحدثنا المؤلف أن « العبدلى » يعيش فى بلهنية من العيش وسعة فى الحياة ؛ يرجع إلى المرتب الضخم الذى يتقاضاه من الخزانة البريطانية إذ لا يهمه شىء فى الحياة إلا العناية بقصوره وزخرفها بضروب الزينات ثم الشغف العظيم بزرع المزروعات وغرس النباتات وإعطائها قسطاً عظيما من عنايته واهتمامه . والإنكليز يعلمون منه

(١) من المكاتب الشهيرة بأوربا ، وهى مستعمرة إيطالية فى الكتب العربية

هذا الميل فيتركونه يفعل ما يريد ، لأن سلطته تكوّن أهمّ جزء من المحميات علاوة على أنها موقع مهم يمكّن الإنكليز من بسط نفوذهم إلى أعلى النجود اليمنية .

ويتحدر المؤلف من سلطنة لحج ، فيزهاه سهل « الحَ » وقبل أن يضرب على أبواب المدينة « العالية » تعترضه مدينة « تعز » وضواحيها ، وهى عبارة عن تفاريق من الفراديس المصطفة ؛ مكّنت فى سهل اليمن ولها منزلة خاصة فى قلوب اليمنيين ؛ فحوالى هذه المدينة ينبت أعظم « كيف » تترنّح له أعطاف اليمنيين وتهفو له نفوسهم . هذا « الكيف » هو شجرة « القات » التى لعبت وما زالت تلعب دوراً خطراً فى الحياة الاجتماعية اليمنية . ويحسن بنا أن نذكر العبارة البليغة التى وصف بها السنيور آبونتى هذه الشجرة الملعونة (ولا مؤاخذة أيها المواطنون !) فقد حللها تحليلاً كيماوياً استهلها بقوله :

شجرة القات

« منذ قرون خلت وسكان هذا الجزء السعيد من بلاد العرب يمضغ أوراق القات . وأول ما عرف من أمره أن أحد الرعاة لاحظ أن إبله تمددت على وجه الأرض بعد أن أكلت من هذه الأوراق ، وقد فهمتها نشوة من الراحة والانبساط ، وسرت فى مفاصلها تيارات خفية أخمدت من حركتها ، وشلّت من

عملها فأخذ يضربها ضرباً مبرحاً لتنهض وإذا بأتعابه تذهب سدى ، والجمال أصبحت لا تحس بألم الضرب . فبهت من هذا الأمر الغريب ووقف ذاهلاً متحيراً لا يدرى ماذا يصنع ؛ وأخيراً بدا له أن يطعم هذه الورقة ، تقطف منها شيئاً وصار يتناولها كل يوم وعند كل فراغ . ومن ذلك اليوم أقصيت الجمال « المسكينة » عن هذه الشجرة ووجدت لها عمالاً واسعاً إلى قلوب اليمنيين ، فكان متعة نفوسهم فى الأفراح والأتراح !

وليس فى استطاعتنا تحديد طعم هذه الأغصان ، ولكن يمكننا أن نعتبر طعمها حريفاً مراً يشبه شراب الكحول المشوب بالأفاويه Licore ، وقد عبده اليمانيون عبادة مدهشة وتفانوا فى محبته حتى أنهم ليصرفون فى سبيله ما لا يصرفون فى غذائهم الضرورى ؛ وهم يمضغونه كل يوم فى ساعات مختلفة من النهار ؛ ولهم فى طريقة جمعه حماسة غريبة ؛ وتتعرم فى أثناء مضغه أمواج من الفرح والأنس ، يرون الدنيا به واسعة تشع فيها ألوان موردة زاهية !

ويشعر الماضغ مبدئياً بنشوة مؤقتة ، ولكن سرعان ما يعقبها ارتخاء فى الأعضاء ، وانحطاط فى القوى ، وهمود فى العواطف يشبه التخدير . والإفراط فيه يسبب انقباضاً وميلاً دائماً إلى النوم . وآثاره لا تقف عند هذا الحد فقط ، بل إنه يخمد الغريزة الجنسية ، ويتسرب ماء الحياة من الرجل فتختلط ببوله ! وإذا بلغ الرجل دور الكهولة فقد فقد كل حيويه وانقطعت بينه وبين زوجه أسباب الاتصال !

ومع كل هذه الأضرار فاليمانيون لا يستطيعون أن يعيشوا فى الوجود بدون قطف هذه الأوراق العجيبة ! ومن الطبيعى أن هذا النبت الذى تنتجه اليمن لا يمكن أن يكون كله فى مستوى واحد من القيمة والجودة . فالأغصان التى تنمو على منحدرات جبل صبر[1] هى أفضلها وأجودها وقد كان لها فى يوم ما اردهار عظيم وسوق رائجة ...

(يتبع) محمد عبد الله العمرودى

(١) جبل مطل على تعز